وتدفق موجات الهجرة الجماعية من الشرق والغرب، حاملة الى الكيان الجديد طوائف يهودية كاملة، بثقافاتها المختلفة، ومشكلاتها المتعددة، واحتياجاتها المتنوّعة. وكان صهر هذا الخليط البشري، الذي ينتمي الى اكثر من تسعين قومية، في بوتقة واحدة، يبدو أمراً في غاية التعقّد، ان لم يكن مستحيلاً. ذلك ان البوتقة ذاتها لم تكن قد وجدت بعد. فالهوية الثقافية للدولة الجديدة لم تتبلور؛ وأسس العيش المشترك لليهود في هذه الدولة لم تكن قد أُرسيت؛ والسياسات العامة للنخبة الحاكمة لم تكن قد خططت ولم يتضح من معالمها، في ذلك الوقت، سوى الاستعداد للحرب المقبلة ضد العرب، مع ما يتطلبه ذلك من حشد بشري، واقتصادي، وعسكري.

وطوال سنوات عديدة، كان التحدي الرئيس الذي يواجه النخبة الحاكمة في اسرائيل يتمثّل في كيفية دمج المهاجرين اليهود في كيان اجتماعي وثقافي واحد. وكان بن ـ غوريون يسأل بحيرة وقلق، بعد عشر سنوات من وجوده في السلطة: «لا ادري كيف سيصبح هذا الجمهور، الذي قدم الى البلاد، شعباً واحداً... ان هذه القضية أصعب بكثير ممّا تبدو...»(١٤).

فالتمايزات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والطائفية، التي وجدت بين هذا الخليط البشري الذي يتحدث أفراده بعشرات اللغات، كانت كافية لتعصف بدول أكبر وأكثر رسوخاً وامكانات من اسرائيل. وكان توزيع هذا الخليط على الهرم الاقتصادي ـ الاجتماعي للكيان الجديد ينطوي على مخاطرة كبيرة، خاصة في مجتمع للمهاجرين، يقدم كل منهم مصلحته الخاصة على مصالح الآخرين.

واستباقاً لانفجار التناقضات الداخلية بين اليهود، والتي بدأت بوادرها منذ مطلع العشرينات، كان لا بد من توجيه ديناميات الصراع الاجتماعي نحو هدف خارجي، لتحويل التناقضات الداخلية، مجتمعة، الى تناقض ثانوي ازاء التناقض مع الخارج. ولم يكن من اليسير كبح الصراعات الداخلية، وتحويل قوة التركيز والاهتمام والسلوك نحو الخارج، الّا بتصعيد الصراع الخارجي، وجعله «ملموساً» من حيث تأثيره الفعّال والمستمر في الوضعية النفسية، والاجتماعية، للمستوطنين اليهود، بحيث يخلق حالة دائمة من التوتر والتحفّز العام، موجهة الى الخارج.

لقد أدرك الصهيونيون، منذ فترة مبكرة، ان الوحدة الاجتماعية بين اليهود في الدولة الجديدة، وفي غياب الجوامع الايجابية المشتركة بين المستوطنين اليهود، لا يمكن الّا ان تكون وحدة سلبية، مبنيّة على الخوف الفردي، والجماعي، من العدو الخارجي. قال بن ـ غوريون: «ان العداء المستمر من جانب العرب، قبل انشاء الدولة، أدى الى قيام مجتمع يهودي أكثر تماسكاً في البلاد... ومنذ ذلك الحين، كانت العداوة العربية المتواصلة حافزاً لتطوير اسرائيل»(١٥).

ونجد في علم النفس الاجتماعي تفسيراً لمفهوم بن ـ غوريون حول «التماسك» الاجتماعي، المبني على الخوف من الخطر الخارجي؛ وهو ما يسمّى، في علم النفس، بـ «التوحّد». فبعد ان تحدث فرويد عن التوحّد الايجابي، الذي يقوم على الميول والاهتمامات والحاجات المشتركة بين الأفراد، وهو ما ينمي روح الجماعة لدى المجموعات البشرية ذات النشأة والتطور الطبيعيين، يتطرق الى نوع آخر من التوحّد، لا ينهض على أسس ايجابية مشتركة لدى أفراد الجماعة، بل هو توحّد سلبي، محوره العداء والخطر. كتب فرويد: «ان من أهمّ عناصر تقوية الشعور بالجماعة، وجود أخطار خارجية، فعلية أو متوهّمة؛ فلا عجب اذا لجأ القادة، منذ فجر التاريخ، الى اختلاق هجمة خارجية، بغية تدعيم الوحدة القومية، وتوطيد سلطانهم على الشعب». وورد في ما كتبه فرويد حول التوحّد السلبي، مقولات مثل: «تحويل الميول العدوانية الى الخارج» و «نقل العدوان» وكيف «توجّه الضحية الانفعالات من